# عربي استعادته قبيلته مقابل تيس وآخر أبطل بالضحك صلاة هارون الرشيد.. تعرّف على ثقافة الفكاهة في تراث المسلمين

الجمعة 28 نوفمبر 2025 08:00 م

(وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا)؛ (سورة النجم/الآيتان: 43-44)؛ قال الجاحظ (ت 255هـ/869م) –في كتابه 'البخلاء'- معلّقا بذكائه المعهود على هذه الآية الكريمة: "فوضع الضحك بحذاء الحياة، ووضع البكاء بحذاء الموت"!! إن هذا التحديد اللوّاح الذي يجعل الحياة معادِلة للضحك هو الذي أحلَّ الثقافةَ الإسلامية مكانَ المُرحِّب والمُشجِّع على الفكاهة والمرح، فكلما اتسعت الحياة من حول المسلمين زادت دافعيتهم نحو كشف التناقضات والتنقيب عن الغرائب والعجائب، وكثر فيهم الساخرون والناقدون، وتنوعت عندهم مصادر الإضحاك والبهجة!

ولم يكن الفهم القويم لتعاليم الدين مكافِحا للمرح في حياة المسلمين، ولا مشجعا على العبوس والتجهُّم في علاقاتهم، بل إن مظاهر السماجة وانعدام الظَّرْف كانت تقابَل بالسخرية والتندُّر، لذلك كان المسلمون -وفي القلب منهم العرب- أمةً ضاحكة مستبشرة مهما أسعفتها الظروف بمسرة وإضحاك، فقد كان نبيهم ﷺ يضاحك أصحابه ويداعبهم ولا يقول -مع ذلك- إلا حقا، وكذلك كانت الطبقات الأولى من الصحابة والتابعين، الذين أقبلوا على الحياة بقدر ما تزودوا منها خير زاد للآخرة، وعرفوا المرح والبهجة ولم يكن الفكاهة والمزاح عندهم خطيئةً أو حتى خطأً.

والضحك له صور وضروب؛ فهو تارة يكون من أجل التسرية، وتارة لغرض التوجيه والتعليم، كما يوظف أحيانا كثيرة في النقد السياسي والاجتماعي، ويبدو أن النوع الأخير هو الأغلب والأشهر في التاريخ الاجتماعي الإسلامي، ومن هنا كان الجاحظ أبرز الناقدين الاجتماعيين في تاريخ المسلمين، إذْ وظّف كلَّ عناصر الفكاهة والظَّرْف والتنكيت والتبكيت لكشف النقائض والنقائص والظواهر الاجتماعية والدينية والسياسية.

ولذا كان الجاحظ وأدبه الساخر عنوانا على تحول اجتماعي ضخم حدث في أوْج عصر الخلافة العباسية؛ فقد كسرت الحواجز بين الثقافات والأفكار والأعراق والأديان، وكانت مدائن الإسلام مثل بغداد وغيرها مسرحا للعلوم والفنون والصنائع والتجارة، فضلا عن مجالس الأدب واللهو و"الإمتاع والمؤانسة".

والضحك عند المسلمين لم يكن مجرد استرواح نفسي فقط، بل إنهم حاولوا أن يجعلوا له وظائف عقلية ومعرفية وفنية، لاسيما أن الإضحاك يستجيب له الذكي والنبيه، ولا تقوم سوق الفكاهة والنكتة إلا على كشف التناقضات والغرائب، وكل تلك التقنيات منشطة للتفكير وموجهة له على كسر الأنماط والرتابة في حياة الناس الناصبة والصاخبة، فضلا عن أن صياغتها وتعبئتها بـ"أحرِّ النوادر وأجمع المعاني" هو فن أدبي بلاغي اختزالي، وبالتالي فإن الضحكة صناعيا تسكن قلب صاحبها ومتلقيها مجاوِرةً للبيان والفصاحة!

وبما أن اتساع الحياة و"استبحار العمران" -بالتعبير الخلدوني- يعني غالبا تعدُّدَ مسارب الخلل والانحراف، وهذا يعني أن تُفتح أمام الفكاهة أبواب كبرى وأن تتاح للسخرية آفاق أرحب؛ فمن ثمَّ غالبا ما نجد الفكاهة تتحول من مجرد ثقافة مجتمعية عفوية إلى صناعة وحرفة ذات أوضاع وأصول، بحيث تَدُرُّ دخلا وفيرا لعدد من المهرّجين وأصحاب المساخر ممن دأبوا على إضحاك عامة الناس.

وقد ظلَّلت أجواء تلك "الصنائع" الضاحكة سحبٌ سخية من التسامح والتعاطي المنفتح؛ ففي أحيان كثيرة كانت السلطات تغض النظر عن هذه الفنون الساخرة على ما كان فيها من التنكيت السياسي اللاذع، وربما كان ذلك التغاضي من أجل تنفيس الضيق والكبت المزدحم في صدور الناس، وربما لما كانت تحمله من مؤشرات تقرؤها السلطة رصدا لحجم الاعتراض المجتمعي على بعض سياساتها أو رجالاتها. ومع اتساع الثروات كثرت المجالس التي تحفل بصناع الكوميديا، ودلف إلى ذلك شعراء وأدباء أتقنوا هذا الفن، وبالتالي انتشرت أنشطته في كل طبقات المجتمع مُمارَسة ومدارَسة.

ولذلك كان من اللافت أن تعتبر المضحِكات من ألوان الأدب والثقافة؛ فكانت تُفرَد لها مدونات التصانيف مثل كتاب الجاحظ في ‘كتاب المضاحك’ الذي لم يصل إلينا للأسف، وصنّف معاصره الزبير بن بكار القرشي (ت 256هـ/870م) كتابا سماه: ‘كتاب الفكاهة والمزاح’، وذكر محمد بن إسحق النديم أو ابن النديم (ت 380هـ/991م) -في كتابه ‘الفِهْرِسْت’- أسماء تسعة كتب تناولت ظاهرة الضحك في عصر العباسيين تحت عنوان "النوادر" قائلا إنه "لا يُعلَم مَن ألفها"!

ولئن جهلنا مؤلفي تلك المصنَّفات الضاحكة المضحكة؛ فإن عناوينها تُنبئ عن ترسُّخ ما يمكن أن نسميه "أدب الفكاهة" في قرون الإسلام المبكرة، وهو ما تروم هذه المقالة التوقف عنده لنرى كيف عبّر المسلمون عن "طبائع" الضحك والفكاهة لديهم حتى صارت عندهم "صنائع" مجتمعية متخصصة؟ وكيف تنوّع تراثهم في المضاحك إلى الحد الذي يمكن وصفه بالمدهش والمذهل؟ وكيف رأى مؤرخو الثقافة المجتمعية هذه الظاهرة فدّونوا قصصها وأحاديث مجالسها ووثقوا أصولها وترجموا لأصحابها على نحو ما فعلوه مع سائر العلوم والفنون؟

## ظاهرة مخضرمة

للضحك والفكاهة في التراث العربي تاريخ حافل منذ ما قبل الإسلام؛ ذلك أن الضحك والبكاء صنوان قد غُرسا في أعماق الإنسان على نحو ما أبانت عنه آية سورة النجم الآنفة الذكر، كما أشار كثير من الفلاسفة إلى هذه الحقيقة عندما عرّف بعضهم الإنسان بأنه "حيوان يَضحكُ ويُضحِكُ معًا". وتزخرُ المعاجم العربية بمادة غزيرة عن الفكاهة والضحك بمفردات تحيل معانيها على طيب النفس والمزاح؛ كما يورد الجاحظ ما يدل على احتفاء العرب في جاهليتهم بالضحك حتى جعلوه من مدارك التفاؤلية الخُلُقية في أسمائهم، فقال -في كتابه ‘البخلاء’- إنه "لفضل خصال الضحك عند العرب [كانت] تسمّي أولادها بـ«الضحّاك» وبـ«بسام» وبـ«طَلْق» وبـ«طليق»"!!

ولذلك نضح تراث العرب في الجاهلية بمشاهد الفكاهة والضحك، ومن ذلك ما أورده كما الدين الدَّمِيري (ت 808هـ/1406م) -في كتابه ‘حياة الحيوان الكبرى’- من أن قبيلة مُزَينة أسرت ثابتًا والد الصحابي حسَّان بن ثابت الأنصاري (ت 54هـ/675م)، "وقالوا لا نأخذُ فداءَه إلا تيسًا! فغضب قومه، وقالوا: لا نفعل هذا؛ فأرسلَ إليهم: أعطوهم ما طلبوا فلما جاؤوا بالتيس، قال: أعطوهم أخاهم وخذوا أخاكم؛ فسُمّوا مُزينة التيس، وصار لهم لقبا وعيبًا".

وإذا كانت معاني الضحك والتندر والفكاهة في عصر الجاهلية قد دارت حول سياقها المعرفي والثقافي المهيمن آنذاك الذي اشتُهر بالحط من المخالف؛ فإن عصر الإسلام جاء ليصحّح تلك المفاهيم، ويضع الضحك والفكاهة والمزاح في إطار أخلاقي منضبط وقد ثبت أن النبي  كان يُمازحُ أصحابه، حتى إن بعضهم استغرب من ذلك متسائلاً: يا رسول الله، إنّكَ تُداعبنا! قال: "إنِّي لا أقولُ إلا حقّا" (سنن الترمذي).

وقد اتكأ الصحابة على هذا المثال النبوي؛ فعُرفت منهم مواقف الضحك والتضاحك والتفكّه، حتى إن البخاري (ت 256هـ/870م) -في ‘الأدب المفرد’- يروي عن التابعي بكر بن عبد الله المزني (ت 108هـ/727م) أنه "كان أصحاب النبي  يتبادحُون (= يتقاذفون) بالبطِّيخ؛ فإذا كانت الحقائقُ (= الجِدّ والمسؤولية) كانوا هم الرِّجال".

واشتهر بعض الصحابة بالمضاحك مثل النُّعيْمان بن عمرو الأنصاري الذي ترجم له ابن حَجَر العسقلاني (ت 852هـ/1448م) -في كتابه ‘الإصابة في تمييز الصحابة’- ذاكرا قصصا من فكاهته، ومنها أنه "كان لا يدخل المدينة طُرْفة إلا اشترى منها ثم جاء بها الى النبي  فيقول: هذا أهديته لك، فإذا جاء صاحبها يطلب النعيمان بثمنها أحضره إلى النبي  وقال: أعط هذا ثمن متاعه، فيقول: أوَلمْ تهده لي؟ فيقول: إنه والله لم يكن عندي ثمنه ولقد أحببت أن تأكله، فيضحك [النبي ] ويأمر لصاحبه بثمنه"!!

ثم إن عصرًا جديدًا تشكل في زمن الأمويين فخفّ فيه التمسك بأهداب الدين وأخلاقه وتفشت مظاهر المدنية حتى تجلت مظاهر الفكاهة في طبقات المجتمع كافة: من الساسة ورجال الحكم إلى القبائل والأفراد؛ ففي عهدهم يُروى –فيما حكاه ابن عبد ربه (ت 328هـ/940م) في ‘العقد الفريد’- أنه اختصم إلى والي العراق زياد بن أبيه (ت 53هـ/674م) بنو راسب وبنو طفاوة في غلام ادّعوه، "وأقاموا جميعا البيّنة عند زياد؛ فأشكل على زيادٍ أمرَه

فقال سعد الرابية من بني عمرو بن يربوع: أصلح اللَّه الأمير، قد تبيَّن لي في هذا الغلام القضاء؛ ولقد شهدتْ البينة لبني راسب والطفاوة، فولِّني الحُكم بينهما قال: وما عندك في ذلك؟ قال: أرى أن يُلقى في النهر، فإن رسَب فهو لبني راسب، وإن طفَا فهو لبني الطفاوة فأخذ زياد نعليه وقام وقد غلبه الضحك، ثم أرسل إليه: إني أنهاك عن المزاح في مجلسي قال: أصلح اللَّه الأمير، حضرني أمر خفتُ أن أنساه؛ فضحك زياد" رغم ما كان يتصف به من شدة ومهابة، فقد كان "زياد أفتك من الحجاج لمن يخالف هواه"؛ وفقا لما يرويه الحافظ الذهبي (ت 748هـ/1347م) في ‘سير أعلام النبلاء’.

وفي كتب التراث حكايات كثيرة شعرا ونثرا تتجلى فيها مظاهر الفكاهة في المجتمع الأموي، وقد شملت كافة طبقات هذا المجتمع من القضاة والعلماء والشعراء وغيرهم، ونحن ننقل لك نموذجا منها مما رواه ابن عبد ربه في ‘العقد الفريد’. فقد ظهر لنا في هذا العصر ظرف الإمام الفقيه المحدّث الشَّعبي (ت 109هـ/728م) الذي كان يستخدم أسلوب التغافل الفكِه، وعُرف عنه المزاح فكان كثير السخرية من الحمقى

ودخل يوما رجل أحمق على الشعبي وهو جالس مع امرأته في بيته فقال: "أيكم الشَّعبي؟ فقال الشعبي: هذه! وأشار إلى زوجته؛ فقال: ما تقول -أصلحك الله- في رجل شتمني أول يوم في رمضان، هل يُؤجر؟ قال: إن قال لك يا أحمق، فإني أرجو له"!! وقال له رجل آخر: "كيف تُسمَّى امرأة إبليس؟ قال: ذاك نكاحُ ما شهدناه"!!

## تألق حضاري

أما أشعب بن جُبير (ت 154هـ/772م) –وهو مولى عبد الله بن الزبير (ت 73هـ/790م)- فقد اشتُهر بالطمع ومواقفه شديدة السخرية والضحك،

وكان رجلا محسوبًا على جيل التابعين، إلا أنه عُوتب في ذلك لندرة ما أخذه من الحديث عن جيل الصحابة؛ فقال مدافعًا عن نفسه: إنه يحفظُ حديثًا واحدًا، فقالوا: حدّثنا به! فقال: "حدَّثني نافع (مولى عبد الله بن عمر بن الخطاب المتوفى 117هـ/736م) عن ابن عمر (ت 73هـ/693م) عن رسول الله ﷺ قال: مَن كان فيه خصلتان كُتب عند الله خالصًا مُخلصًا قالوا: إنّ هذا حديث حسن، فما هاتان الخصلتان؟ قال: نسي نافع واحدة، ونسيتُ أنا الأخرى"!!

ومن مواقف طمع أشعب المضحكة أنه "وقف على امرأة تعملُ طبق خوصٍ، فقال: لَتُكبّريه، فقالت: لِمَ؟ أتريدُ أن تشتريه! قال: لا، ولكن عسى أن يشتريه إنسانٌ فيُهدى إليَّ فيه؛ فيكون كبيرًا خيرًا من أن يكون صغيرًا ويحكي المفضل الضبي (ت 291هـ/904م) -في كتابه ‘الفاخر في الأمثال’- أن أشعب اجتمع به غلمان المدينة يومًا يؤذونه "فقال لهم: إن في دار بني فلان عُرْسًا فانْطَلِقوا إليه فهو أنفع لكم فانطلق الغلمان وتركوه فلما مَضوا، قال: لعلّ ما قلتُ لهم من ذلك حق، فمَضى في إثرهم نحو الموضع الذي وصفه للغلمان فلم يجد شيئا، وظفر به الغلمان هناك فآذوْه"!

وتكثر أخبار الأعراب القادمين من عُمق الصحراء بمواقف غير مصطنعة تنبئنا أن الفكاهة كانت متأصلة في النفوس والمجتمعات العربية قريبة العهد بالإسلام آنذاك؛ فالإمام ابن الجوزي (ت 597هـ/1200م) يروي -في كتابه ‘أخبار الظرفاء والمتماجنين’- أن أعرابيا مَرَّ الله عليه بحفظ القرآن بيد أنه استطاع أن يوظفه لغرض آخر، فقد أقبل على رجلٍ "وبين يديْ الرجل طبقٌ فيه تينٌ، فلما أبصرَ الأعرابيَّ غطّى التينَ بكساء كان عليه، والأعرابي يُلاحظه فجلس بين يديه، فقال له الرجل: هل تُحسن من القرآن شيئًا؟ قال: نعم؛ قال: فاقرأ؛ فقرأ الأعرابي: {والزيتون وطُورِ سِينين}، قال الرجل: فأين التين؟! قال: تحت كسائك"!!

ويروي أبو حيان التوحيدي (ت بعد 400هـ/1010م) -في ‘البصائر والذخائر’- أنه "قُدِّم إلى أعرابي كامَخٌ، فقال: مِمَّ يُعمْل هذا؟! قالوا: من اللبن والحنطة! قال: أصلان كريمان، لكنهما ما أنجبا" نِتاجا طيباً!! وجاء في ‘شرح مقامات الحريري’ لأبي العباس أحمد بن عبد المؤمن القَيْسي الشَّريشي (ت 619هـ/1222م) أنه "قُدِّم لأعرابيّ كامَخٌ فلم يستطبه، وأكل منه شيئا وخرج ودخل المسجد والإمامُ في الصلاة يقرأ: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ)؛ (سورة المائدة/الآية: 3)، فقال الأعرابي: والكامَخ، لا تَنْسَه أصلحك الله"!!

ويحكي ابن الجوزي -في ‘أخبار الظرفاء’- أن أعرابياً ولي البحرين –وكانت آنذاك تعني معظم الساحل الشرقي لجزيرة العرب- فجمع يهودها وقال لهم: "ما تقولون في عيسى بن مريم؟ قالوا: نحنُ قتلناه وصلبناه! قال: فوالله لا تخرجون حتى تُؤدّوا ديته، فأخذها منهم". ويحكي التوحيدي (ت بعد 400هـ/1010م) -في ‘الإمتاع والمؤانسة’- أن بعض العُقلاء سأل أعرابيا: "أتُريد أن تُصلَبَ في مصلحة الأمّة؟ فقال: لا، ولكني أُحبّ أن تُصلَبَ الأمّة في مصلحتي"!

ومع مجيء عصر العباسيين (132–656هـ/750-1258م)؛ تعمق الاندماج بين المسلمين بأعراقهم المختلفة، وبرزت ظواهر اجتماعية ودينية وأخلاقية جديدة، واختلفت أساليب الحياة الاقتصادية، انتشر الترف ورغد العيش والتنعّم لدى الأمراء والوزراء ومن هم في طبقتهم، وكثرت مجالس اللهو والغناء والتأنق في المُلهِيات

وقد أدى ذلك إلى جرأة الأدباء والشعراء وعامة الناس على الولوج إلى ميدان الفكاهة والضحك، فأصبحت الفكاهة "صناعة ترفيه" قائمة على أصول وأدبيات، حتى ذكر قاضي القضاة الحنبلي نجم الدين المقدسي (ت 689هـ/1290م) -في ‘مختصر منهاج القاصدين’- مسألة "اللعب والهزل بما يضحك الناس به"، وقال "إن بعض الناس يكون كسبه من هذا".

رصد مبكر

ويبدو أن المجتمع العباسي قد تقبّل هذه النكات بصدر رحب، حتى إن التوحيدي يدعو إليه قائلاً في ‘البصائر والذخائر’: "إياك أن تعافَ سماع هذه الأشياء المضروبة بالهزل، الجارية على السَّخف، فإنّك لو أضربتَ عنها جُملة لنَقَص فهمُك، وتبلّد طبعُك؛ فإنك ما لم تُذِق نفسَك فرحَ الهزل كربَها غمُّ الجِدّ، وقد طُبعت في أصل تركيبها على الترجيح بين الأمور المتفاوتة".

ثم إنه يقدم لنا وجهة نظر فلسفية تندرج فيما يسمى اليوم علم الاجتماع السياسي، وما يندرج فيه من توظيفات مختلفة للنكتة والشائعة السياسية؛ فيقول إن الناس "لا بد لهم -في الدهر الصالح، والزمان المعتدل، والخير المتصل- من فكاهة وطيب، فإن أغضى الملكُ بصرَه على هذا القسم عاش محبوبا، وإن تنكّر لهم فقد جعلهم أعداء"!!

,يأتي الجاحظ ذروة للأدب والأديب الساخر في عصر العباسيين، ويلاحظ الباحث أحمد عبد الغفار عبيد -في ‘أدب الفكاهة عند الجاحظ’- أنه "كان يستخدم الإطار الفكاهي ليوجّه نقداته الهادفة، وسُخرياته المرّة إلى الأدواء الاجتماعية، والنقائص الأخلاقية التي يراها فاشية في الناس من حوله".

وقد انتقد الجاحظ -بأسلوبه الممزوج بالسخرية ولغته الجزلة العذبة- أدواءً اجتماعية مثل الكذب والبخل وعجائب الظواهر الاجتماعية التي رآها في الشعوب؛ فتناول مثلا ظاهرة القُصَّاص والوعّاظ ممن لم يحصِّلوا علمًا حقيقيًا وأوهموا العامة في زمنه بأنهم علماء لا يُشق لهم غبار، وكانت تصدر منهم أفعال وأقوال على قدر كبير من الغرابة والفكاهة

ومن هؤلاء أبو كعب القاصّ الذي كان معاصرا للجاحظ فذكر من نوادره -في كتابه ‘الحيوان’- أنه كان يحكي ما في جُعبته بمسجد عتّاب ببغداد القديمة كل أربعاء، "فاحتبس عليهم في بعض الأيام وطال انتظارهم له فبينما هم كذلك إذ جاء رسوله فقال: يقول لكم أبو كعب: انصرفوا فإني قد أصبحتُ اليوم مخمورًا"! ويروي ابن الجوزي -في ‘أخبار الحمقى والمغفلين’- أن أبا كعب هذا قال مرة في قصصه: "كان اسم الذئب الذي أكل يوسف كذا وكذا؛ فقالوا له: إن يوسف لم يأكله الذئب! قال: فهو اسم الذئب الذي لم يأكل يوسف!".

ويكشف لنا الجاحظُ –في كتابه ‘الحيوان’- أن إيراده الضحك والفكاهة أمر مقصود في مؤلفاته لتنشيط القارئ وإبهاجه، "فربّ شِعر يبلغُ -بفرط غباوة صاحبه- من السرور والضحك والاستطراف ما لا يبلغه حشدُ أحرّ النوادر وأجمع المعاني"! وجعل الجاحظ ‘رسالة التربيع والتدوير’

نموذجًا فذًّا في الفكاهة القائمة على التهكم والسخرية؛ حين ألقى بسهام نقده نحو رجل كان معاصرًا له ويُدعى أحمد بن عبد الوهاب؛ فسخر فيها من شكله وخِلقته، ومن ثقافته الضحلة وجهله.

ثم هو يسخرُ من جهل بعض أعراب زمنه بالنحو؛ فقد نقل –في 'البيان والتبيين'- أن الربيع بن عبد الرحمن السّلمي البصري -لعله الواعظ المعتزلي تلميذ الحسن البصري (ت 110هـ/729م)- سأل أعرابيًا: "أتهْمِزُ إسرائيلَ؟ قال: إنّي إذن لرجل سوء؟ قلت: أتجُرُّ فلسطينَ؟ قال: إنّي إذن لقويّ"!!

كما يقفُ الجاحظ -بذكائه وألمعيته- مع مضاحك طائفة البخلاء في المجتمع العباسي، ويبدأ بأكثر الناس بخلاً في زمنه -كما رآهم الناس- وهم أهل مدينة مرو خاصة ومنطقة خراسان عامة؛ فيقول في كتابه 'البخلاء': "قال أصحابنا: يقول المروزي للزائر إذا أتاه وللجليس إذا طال جلوسه: تغدّيت اليوم؟ فإن قال نعم، قال: لولا أنك تغدّيتَ لغدّيتُك بغداءٍ طيبٍ؛ وإن قال: لا، قال: لو كنتَ تغديتَ لسقيتُك خمسةَ أقداح؛ فلا يصيرُ في يده على الوجهين قليل ولا كثير"!!

## قوالب جديدة

ولئن أوتي هؤلاء الأدباء وبعض الفقهاء والمؤرخين قدرة على التدوين وجمع أخبار الضحك والفكاهة، فإن غيرهم أوتوا ملكة رسم مشاهد كوميدية بصورة تشخيصية فذّة، جمعت عددًا من الأبطال في موقف واحد، مثل أولئك الذين نراهم في مسارح وأفلام هذه الأيام.

فإذا كان الأديب الفارسي عبد الله بن المقفّع (ت 142هـ/760م) أول رائد -في لغة الضاد- لهذا اللون الأدبي بترجمته لكتاب 'كليلة ودمنة'، الذي أورد جامعه على لسان أبطال قصصه من الحيوانات صنوفًا من الحكمة والأدب؛ فإن ذروة الكوميديا التشخيصية وُلدت مع ميلاد فن المقامات على يد بديع الزمان الهمذاني (ت 398هـ/1009م)، ثم من بعده الحريري البصْريّ (ت 516هـ/1122م).

تمتاز أغلبية هذه المقامات بالفكاهة والطرافة، مثل 'المقامة الحمدانية' التي يصور فيها الهمذاني مساجلة عقدها سيفُ الدولة الحمداني (ت 356هـ/967م) لوصف فرس؛ وكذا 'المقامة المارستانية' التي صوّر فيها رجلاً مجنونًا يُنزل غضبه على فرقة المعتزلة؛ و'المقامة الحلوانية' التي قصد فيها بطل مقاماته المتخيَّل عيسى بن هشام حمّامًا للاغتسال والاحتجام، فإذا هو يواجه مواقف شديدة الطرافة بين رجلين تنافسا عليه أو على غسل رأسه وقفاه بالأحرى، ويسرد البطل حكايته مختتما باحتكام الرجلين إلى صاحب الحمام، في مشهد شديد الضحك والسخرية!

وعلى صعيد "ناس الهامش"؛ نرى مواقف لا تحصى من الفكاهة التي شاعت في أرجاء ذلك العصر، وهي فكاهة مرحة كانت بنتَ بيئتها ووقتها وثقافتها الغالبة. فقد روى ابن الجوزي -في 'أخبار الظراف والمتماجنين'- أن رجلاً قصد سوق الكوفة ليشتري حمارًا؛ فقال لبائع الحمير: "اطلب لي حماراً لا بالصغير المحتقَر ولا بالكبير المشتهر، إن أقللتُ علفَه صبر، وإن أكثرتُ علفه شكر.. إذا خلا في الطريق تدفَّق، وإذا أكثر الزحام ترفَّق؛ فقال له النخَّاس بعد أن نظر إليه ساعة: دعني، إذا مسخ الله القاضي حماراً اشتريتُه لك"!

واتسعت الدائرة حتى بلغت معلّم الصبيان في الكُتّاب؛ فقد "قال أبو العنبس (الصَّيْمَري المتوفى 275هـ/888م): كان ببغداد معلم يشتم الصبيان، فدخلتُ عليه وشيخ معي، فقلنا: لا يحل لك. فقال: ما أشتمُ إلا من يستحقُّ الشتمَ، فاحضروا حتى تسمعوا ما أنا فيه، فحضرنا يوماً فقرأ صبي: عليها ملائكة غلاظ شداد يعصون الله ما أمرهم ولا يفعلون ما يؤمرون؛ فقالَ: ليس هؤلاء ملائكة ولا أعرابا ولا أكرادا؛ فضحكنا حتى بالَ أحدُنا في سراويله"!!

## شخصيات كوميدية

وقد اشتُهرت شخصيات كوميدية في ذلك العصر مثل جُحا والجَمّاز محمد بن عمرو البصري (ت 250هـ/864م) وأبي العَيْناء (ت 283هـ/896م). فما بين منتصف القرنيْن الأول والثاني الهجريين/السابع والثامن الميلاديين عاش جُحا أو "جِحَى: نوح أبو الغصن" حسبما جاء في كتاب 'الوافي بالوفيات' للمؤرخ الأديب ابن أيْبَك الصَّفَدي (ت 764هـ/1363م) الذي نسب إلى الجاحظ قوله إن عُمْر جحى "أربى على المئة"، وكان جحا من أشهر أصحاب النوادر والفكاهة الشعبية في ذلك العصر وما تلاه.

وقد روى الدميري -في 'حياة الحيوان'- أن والي الكوفة موسى بن عيسى الهاشمي (ت 168هـ/784م) مرّ على جحا يومًا وهو يحفر في منطقة صحراوية، فقال له: "ما بالك يا أبا الغصن لأي شيء تحفر؟ فقال: إني دفنتُ في هذه الصحراء دراهم ولستُ أهتدي إلى مكانها. فقال له موسى: كان ينبغي أن تجعلَ عليها علامة، قال: لقد فعلتُ، قال: ماذا؟ قال: سحابةٌ في السماء كانت تُظلّها، ولستُ أدري موضع العلامة الآن"!
لم تقف روح الفكاهة والتدوين الفكاهي الساخر عند حدود العراق، بل تعدتها إلى الأمم والأقوام والبلدان الأخرى؛ ففي دمشق دوّنَ رجالاتها كثيرا من هذه المواقف الساخرة، ومن ذلك ما أورده سبط ابن الجوزي (ت 654هـ/1256م) -في 'مرآة الزمان'- من أن فخر القضاة نصر الله ابن بُصاقة الغِفَاري المصري الحنفي (ت 650هـ/1252م) طلب منه الأديب التاج عثمان الدمشقي (ت بعد 624هـ/1227م)- أن يهدي إليه من يؤانسه فاشتراها له حمارةً! فكتب إليه يشكره على هذا الصنيع قائلا:

اشترى لي "فخرُ القُضاة" حمارة ** ذاتَ حُسن وبهجةٍ ونَضاره
صانَ عِرضي بها وعــمَّر داري ** عمّرَ اللّهُ بالحميرِ ديارَه!!

وندم فخر القضاة على صنيعه مع التاج عثمان "فكان يقول إذا رآه -وقد اشتهر البيتان- لو شاء الله ما أفتيتُ ولا اشتريتُ"؛ حسب رواية المؤرخ الأديب ابن سعيد المغربي الأندلسي (ت 685هـ/1286م) في كتابه 'المقتطَف من أزاهر الطُّرَف'.

وفي مصر اشتُهر رجل يُسمى أبو هريرة المصري (ت نحو 250هـ/864م) بسرعة البديهة، وكان يعمل ناسخًا للكتب محبًا للشراب والخمر.

ويروي لنا المؤرخ الرقيق القيرواني (ت 417هـ/1027م) -في كتابه ‘قطب السرور في أوصاف الخمور’- أنه بينما هو عائد يوما إلى بيته من نزهة قُرب "بِرْكَة الحَبَش" -خارج مدينة الفسطاط آنذاك- إذ لقيه فارس على حصانه "لا يُتبيَّن منه غير عينيه، فسلَّم وقال: مِن أين أقبل الشيوخ؟ فقلتُ في نفسي: أَجُنَّ الرجل! ومن الذي يَرى معي؟

والتفتُّ فإذا ذَودٌ (= قطيع) من تيوس يسوقها راعٍ، فقلتُ: حضرنا نكاح الوالدة حفظها الله! فضحك حتى كاد يسقط مِن سرجه، فلما كان بعد أيام يسيرة لقيني الأمير بُكير في موكبه، فقال لبعض غلمانه: ألِحقني بالرجل، فارتعتُ لذلك روعاً شديداً، فلما دخلتُ عليه إذا بين يديه كيس فيه ثلاثة آلاف درهم (= اليوم 4000 دولار أميركي تقريبا)، فقال لي: هذا حقُّ حضور ذاك النكاح؛ فعلمتُ أنه هو الذي لقيني"!!

واللافت أننا نرى بعض الشخصيات في كتب التراث قد وُصفت بـ"المضحك"، وهم فئة من الناس يبدو أنهم اتخذوا الإضحاك صنعة لهم، منهم في العراق أبو علقمة النُّميري (ت قبل 225هـ/840م) الذي كان مضحكًا للناس بمواقفه وكلامه الذي كان يجنح لغريب اللغة غير المستعمل، فقد حكى عنه الحافظ ابن عساكر (ت 571هـ/1175م) –في ‘تارخ دمشق’- أنه سأل غُلامه يومًا في البكور: "يا غلام أصقَعت العتاريفُ؟! فقال له الغلام: زقفَيلم! قال أبو علقَمة: وما زقفيلم؟! قال [الغلام]: وما العتاريف؟! قال: الديوك قال ما صاح منها شيء"!

## وللعلماء نصيب

وقد عرفنا أن ثمة مضحكين آخرين لعموم الناس في بقاع أخرى، كان يتجمع عليهم الناس في الطرقات كما حكى الأُبْشِهي (ت 852هـ/1448م) -في ‘المستطرف في كل فن مستظرف’- نقلا عن أحد حاشية هارون الرشيد أنه قال: "جئت إلى جانب دجلة فوجدت الناس مجتمعين، فوقفت فرأيت رجلا واقفا يُضحك الناس يقال له ابن المغازلي".

كما كان المضحكون يغشون مجالس كبار القوم فيجتمعون بهم "في حجرة مرسومة بالندماء"؛ كما يقول التنوخي (ت 384هـ/973م) في ‘نشوار المحاضرة’. بل إنهم يرتادون حتى بيوت المغمورين؛ مثل مُضحك المدينة المنورة الذي ضنّت المصادر علينا بذكر اسمه، وكان قد استدعاه رجل هاشمي ليوقعه في فخّه ويضحك عليه في ليله؛ فسقاه شرابًا هيّج عليه أمعاءه، وظل الهاشمي يضحك على صاحبه المُضحِك الذي اضطر إلى قضاء حاجته أمامه؛ كما يروي صاحب ‘العقد الفريد’.

أما "أدهم المُضحك" فكان رجلاً أسود سريع البديهة متفكّهًا، ويحكي لنا أبو سعد الآبي الرازي (ت 421هـ/1031م) -في كتابه ‘نَثْر الدُّرّ في المحاضرات’- أن أدهم هذا أُخبِر يومًا أن والي المدينة العباسي أمر بعدم مجيء الناس إلى المساجد والمصليات إلا بملابس سود، وكان لونُ السواد شعارا للعباسيين؛ فقال ببديهته: "أنا أخرج عُريان"! يشير إلى أن سواد بشرته يكفيه من لبس الثياب السود!!

بل إن ظاهرة المفاكهة بالنوادر والمُلح اشتهرت بين عموم الفقهاء والمحدّثين ورجال العلم، وسمّوا ذلك "الإحماض"؛ فقد كان الفقيه أو المحدث يخرج عن نطاق درسه المتسم بالرصانة ليذكر نوادر وفكاهات دفعًا لملل طلبته، وفي ذلك يروي الإمام السخاوي (ت 902هـ/1498م) -في ‘فتح المغيث بشرح ألفية الحديث’- عن "ابن عباس (ت 69هـ/689م) أنه كان إذا أفاض في القرآن والسُّنن قال لمن عنده: أحمضوا بنا، أي خوضوا في الشعر والأخبار".

ومن العلماء من كان فكِهًا بطبعه، مثل سُليمان بن مهران المعروف بـ"الأعمش" (ت 148هـ/766م) الذي وصفه الذهبي في ‘السِّيَر’ بأنه "شيخ الإسلام شيخ المقرئين والمحدثين"؛ فقد قال –وفقا للذهبي- لطلبته يومًا: "بلغني أن الرجلَ إذا نام حتى يُصبحَ -يعني لم يُصلِّ [الصبح]- توزَّكه الشيطانُ فبالَ في أُذنه، وأنا أرى أنه قد سلحَ في حلقي الليلة! وذلك أنه كان يسعل".

بل يروي قاضي القاضي ابن خلّكان (ت 681هـ/1282م) -في ‘وفيات الأعيان’- أنه جاء إلى حلْقة درسِه وطلابه ينتظرونه على شغف؛ فقال لهم على البديهة: "لولا أن في منزلي من هو أبغضُ إليَّ منكم ما خرجتُ إليكم"، يقصد زوجته! ويحكي الذهبي -في ‘سير أعلام النبلاء’- أن الأعمش جاءه بعض الأضياف يومًا "فأخرجَ إليهم رغيفين فأكلوهما، فدخل فأخرج لهم نصف حبلِ قَثٍّ (= نوع من العُشب)، فوضعه على الخِوان (= طاولة الأكل)، وقال: أكلتُم قُوتَ عيالي، فهذا قوتُ شاتِي فكُلُوه"!!

وذكر الذهبي أيضا -في ‘سير أعلام النبلاء’- أن شيخ الإسلام المحدّث يزيد بن هارون السُّلَمي (ت 206هـ/821م) "كان صاحب مزاح"، رغم أنه هو الذي كان الخليفة المأمون يخشى جماهيريته حتى إنه لم يجرؤ على إعلان القول بخلق القرآن حتى مات يزيد!!

## مهرّجون وخلفاء

لم تخلُ مجالس الخلفاء والسلاطين من الشخصيات الفكِهة المضحكة، حتى إن كثيرًا من الخلفاء والسلاطين والملوك اتخذوا "المُضحك" من جملة مقرّبيهم؛ فمع هؤلاء المضحكين كان الخليفة أو السلطان ينسى هموم السياسة وأثقال الرعية

ويبدو أن مضحكي الخلفاء والسلاطين كانوا جزءًا من حاشية أكبر هم "النّدماء" الذين أوضح كتابُ ‘التاج في أخلاق الملوك’ -المنسوب للجاحظ- شروطَهم، فذكر منها أنه "ينبغي أن يكون نديم الملك معتدل الطبيعة سليم الجوارح والأخلاق طيب المفاكهة والمحادثة آخذاً من الخير والشر بنصيب".

والحق أن ظاهرة مضحكي الملوك وُجدت قبل مجيء الإسلام وعرفها العرب وغير العرب؛ فقد كان للإسكندر المقدوني (ت 323 ق م) مُضحك، وكان لملوك الفرس الساسانيين مضحكون أيضًا وأخبرنا المؤرخ المسعودي (ت 346هـ/955م) -في ‘مروج الذهب’- أن ملك الفرس سابور (ت 379م) كان له مُضحك اسمه "مرزبان".

وفي الجزيرة العربية قبل الإسلام وجدنا هذه الظاهرة؛ قال الضبي في ‘الأمثال’: "كان للنعمان [بن المنذر ملِك الحِيرة (ت 609م)] أخٌ من الرضاعة من أهل هَجَر يقال له سعد القرقرة، وكان من أضحك الناس، وكان يُضحك النعمان ويعجبه".

وقيل للقرقرة وقد رؤي أثر الثراء عليه من مصاحبته للنعمان: "ما رأيناكَ إلا وأنتَ تزيدُ شحمًا وتقطرُ دمًا؟ فقال: لأني آخذُ ولا أُعطي، وأُخطئ ولا أُلام، فأنا طول الدهر مسرور ضاحك". وذكر الضبي أيضا شخصية اسمها: العيار بن عبد الله الضبي (ت نحو 609م)، وقال: "كان العيار رجلا بطالا يقول الشعر ويُضحك الملوك".

ويبدو أن هؤلاء المضحكين كانوا على الدوام من أهل الحظوة والقرب والاستفادة من عطاءات الملوك والخلفاء؛ حتى إن بعضهم ترك أموالاً ضخمة من مجالستهم وإضحاكهم بعد وفاتهم، مثل محمود بن الدباغ (ت 614هـ/1217م) مُضحك السلطان العادل أبي بكر بن أيوب (ت 615هـ/1218م) الذي "ترك مالاً جزيلا"؛ كما يذكر المقريزي (ت 845هـ/1441م) في 'السلوك لمعرفة دول الملوك'.

وقد اشتُهر كثير من هؤلاء المهرجين من مضحكي الخلفاء؛ مثل "عطاء" (ت بعد 65هـ/684م) مُضحك الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (ت 86هـ/706م)، وأبي كامل (ت بعد 86هـ/706م) مضحك ابنه الوليد بن عبد الملك (ت 96هـ/716م)، والغاضري المدني (ت نحو 161هـ/779م) مُضحك يزيد بن الوليد بن عبد الملك (ت 126هـ/744م).

وقد روى لنا الإمام الشافعي (ت 204هـ/819م) -حسبما أسنده إليه الحافظ ابن عساكر في 'تاريخ دمشق'- أن الغاضري هذا أكل عند يزيد فالُوذَجاً (= نوع من الحلوى)، "فقالَ له يزيدُ: لا تُكثر منه فإنه يقتُلك! فقال: منزلي -والله يا أمير المؤمنين- عند زُقاق الجنائز، ما رأيتُ جنازة أحدٍ قتلَه الفالُوذَج!".

وفي زمن العباسيين؛ يأتي على رأس مضحكي الخلفاء أبو دُلامة زَنْد بن الجَوْن الأسدي الكوفي (ت 161هـ/777م) الذي قرّبه الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور (ت 158هـ/772م) وابنه الخليفة المهدي (ت 169هـ/785م). وكان أبو دلامة شديد الطرافة مشهورًا بالجبن ودمامة الخِلقة، وكثيرًا ما سخِر من نفسه وزوجته السوداء وأولاده في أشعاره التي أضحكت الخلفاء وحاشيتهم.

وقد أورد المبرّد (ت 285هـ/898م) -في كتابه 'الكامل'- أن بنت عم أبي جعفر المنصور ماتت "فحضَر جنازتها وجلس لدفنها، وأقبلَ أبو دلامة الشاعر فقال له المنصور: ويحك ما أعددتَ لهذا اليوم؟ فقال: يا أمير المؤمنين ابنة عمك هذه التي واريتها قُبيل. قال: فضحِك المنصور حتى استغرب. أي حتى تملّكه الضحك.

## تجاوز وحدود

وكان للخليفة هارون الرشيد (ت 193هـ/809م) مُضحك يُسمى ابن أبي مريم المدني (ت بعد 173هـ/789م)، وكان رجلاً "فكِهًا أخباريّاً، فكان الرشيدُ لا يصبر عنه، ولا يملُّ منه لحُسن نوادره ومجونه"؛ كما يذكر الذهبي في 'تاريخ الإسلام'. وقد حكى الإمام ابن كثير (ت 774هـ/1372م) -في 'البداية والنهاية'- أن ابن أبي مريم هذا كان يعيش في قصر الخليفة فـ"نبّهه الرشيد يوما إلى صلاة الصبح، فقام فتوضأ ثم أدرك الرشيد، وهو يقرأ (وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي)، (سورة يس/ الآية: 22)؛ فقال ابن أبي مريم: لا أدري والله؟ فضحك الرشيد وقطع الصلاة، ثم أقبل عليه وقال: ويحك! اجتنب [بمضاحكك] الصلاةَ والقرآنَ، ولك ما عدا ذلك"!!

كما كان للرشيد مُضحك آخر اسمه المُرتمي (ت بعد 173هـ/789م)، يقول الإمام ابن الجوزي –في 'الظُّرّاف والمُتَماجِنين'- إنه اشتُهر بالأكل قبل طلوع الشمس "فقيل له: لو انتظرتَ حتى تطلُع الشمس! فقال: لعنني اللهُ إن انتظرتُ غائباً من وراء سمرقند (مدينة تقع اليوم في أوزبكستان) لا أدري ما يحدثُ عليه في الطريق"؛ فهو يرى أن الشمس قد تتأخر في الطلوع أو قد لا تطلع!

أما الخليفة المأمون (ت 218هـ/833م) فقد أحبَّ هذه الشخصيات المازحة غير الآبهة بالحياة والناس، ومن هؤلاء رجل بغدادي اسمه ثُمامة المضحك (ت بعد 206هـ/821م) اشتُهر بالعربدة والفكاهة. ويروي لنا الإمام المعافى بن زكريا الجَرِيري (ت 390هـ/1001م) -في 'الجليس الصالح'- أن ثمامة هذا خرج ذات يوم قرب المغرب سكران، وإذا هو بالخليفة المأمون في جماعة من حاشيته، "فلما رآه ثُمامة عدَل عن طريقه، وبصُر به المأمونُ فضربَ كفَلَ دابّته وحاذاه، فوقفَ ثُمامة، فقال له المأمون: ثُمامة؟! قال: إي والله، قال: سكران؟! قال: لا والله؛ قال: أفتعرفُني؟! قال: إي والله؛ قال: من أنا؟ قال: لا أدري والله؛ فضحكَ المأمون حتى تثنّى عليه عن دابّتِه؛ ثم قال: عليك لعائنُ الله! قال: تترى يا أمير المؤمنين! قال: فعاد [المأمون] في الضحك"!!

واتخذ الخليفة العباسي المتوكل (ت 247هـ/861م) –الذي عُرف بـ"إيثاره الهزل والمضاحك" كما يقول المسعودي في 'التنبيه والإشراف'- مُضحكًا اسمه "عُبادة المخنَّث" (ت بعد 232هـ/847م)، كان يصاحبه في رحلاته ولا يقدرُ على الاستغناء عنه. ويحكي صاحب 'العقد الفريد' أن المتوكل "أمرَ به فأُلقيَ في بعض البرك في الشتاء فابتلَّ وكاد يموت بردًا؛ قال: اخرُج من البركة وكُسي، وجُعل في ناحيةٍ في المجلس؛ فقال له: يا عبادة، كيف أنتَ؟ وما حالك؟ قال: يا أمير المؤمنين، جئتُ من الآخرة! فقال له: كيف تركتَ أخي [الخليفة] الواثق؟ قال: لم أجُز بجهنم! فضحك المتوكل وأمر له بِصِلة".

وقد امتدَّت هذه الظاهرة إلى الأندلس؛ حيث اتَّخذ الخلفاءُ وأمراء الطوائف عددًا من هؤلاء المهرّجين الذين ربما استوردوهم من المشرق كما كانوا يستوردون المغنين والمغنيات، بل وحتى كبار الأدباء والشعراء الذين استقطبوهم بالإكرام وجزالة الجوائز ورواتب المناصب.

ومن هؤلاء المهرجين أبو الحسن البغدادي الملقب "الفُكَيْك" (ت بعد 484هـ/1091م)، كان مُضحكاً لأمير إشبيلية المعتمد بن عبّاد (ت 488هـ/1095م)، وقد رآه المؤرخ الأندلسي ابن بسّام الشَّنْتَريني (ت 542هـ/1147م) فوصفه –في كتابه 'الذخيرة'- بأنه "حلو الجواب مليح التندر، يُضحك من حضر...، وكان الفكيك قصيرا دميما، ورأيته يوماً وقد لبس طاقاً أحمر على بياض، وفي رأسه طرطور (= قُبَّعة طويلة) أخضر، عمَّم عليه عِمّة لازَوَرْدية، وهو بين يديْ المعتمد بن عباد يُنشد شعراً قال فيه:

وأنتَ سُليمان في مُلْكِه ** وبين يديك أنا الهُدْهُدُ! فأضحك مَن حضر"!!

ويبدو أن بعض هؤلاء الندماء المضحكين للخلفاء والسلاطين مَن قد زاد على القرب من السلاطين، وأضافوا إلى الأموال التي كانت تُغدق عليهم توليهم مناصبَ عاليةً شريفة؛ فقد عيّن السلطانُ المملوكي الأشرف بَرْسِ بَاي (ت 841هـ/1437م) وليّ الدين محمد بن هاشم الشِّشِيني/الشِّيشِيني الشافعي (ت بعد 839هـ/1435م) ناظرًا للحرم المدني الشريف في سنة 839هـ/1435م وكان "مُضْحِك السلطان وأحد خواص ندمائه"؛ فاعتبر المؤرخ ابن شاهين الظاهري الحنفي (ت 920هـ/1515م) –في كتابه ‘نيل الأمل في ذيل الدول’- هذا التعيين سابقة غريبة تعدّ "من النوادر" في أعراف التعيين المتبعة في هذا المنصب منذ زمن السلطان صلاح الدين الأيوبي (ت 589هـ/1193م).

## تدوين مستوْعِب

يمكن القول إن ظاهرة الفكاهة والضحك قد تمكنت من المجتمعات الإسلامية، وتجلت في التراث العربي شعرًا ونثرًا وتأريخًا، بل وتدوينًا مستقلاً؛ لأنها استحكمت أولا في النفوس والمجتمع، ثم صارت صنعة لعدد من المهرّجين وأصحاب المساخر ممن دأبوا على إضحاك عامة الناس، فضلاً عن الخلفاء والسلاطين الذين اختصّوا ببعض هؤلاء كما رأينا

وكان من اللافت إفراغ الوسع المعرفي للتأليف في هذا اللون من ألوان الثقافة؛ فقد أفرده الجاحظ بالتأليف في ‘كتاب المضاحك’ الذي ذكره عبد القاهر البغدادي (ت 429هـ/1039م) عرَضا ضمن كتابه ‘الفَرْق بين الفِرَق’، ويبدو أنه لم يصل إلينا؛ وصنّف معاصره الزبير بن بكار القرشي (ت 256هـ/870م) المسمى: ‘كتاب الفكاهة والمزاح’، وهو أقدم كتاب يصلنا في هذا الموضوع

وذكر محمد بن إسحق النديم أو ابن النديم (ت 384هـ/995م) -في كتابه ‘الفِهْرِسْتْ’- أسماء تسعة كتب تناولت ظاهرة الضحك في عصر العباسيين تحت عنوان "النوادر" -بينها كتاب ‘نوادر جحا’- وقال إنه "لا يُعلم مَن ألفها"، لكنها تُنبئ عن ترسخ ما يمكن أن نسميه "أدب الفكاهة" آنذاك

كما أورد النديمُ كتابَ أحمد بن محمد بن عَلُّوجَة السِّجْزِي محمد بن عَلُّوجَة – وقيل: عَلُّويه السِّجِسْتاني- الملقب "جِرَاب الدولة" (توفي في القرن الرابع) وعنوانُه ‘ترويح الأرواح ومفتاح السرور والأفراح’، ووصفه بأنه "لم يصنَّف في فنه مثله اشتمالا على فنون الهزل والمضاحك"؛ وكتابا آخر لرجل يُسمى "البَرْمَكي" -شهد بداية الفترة البويهية- عنْوَنه أيضًا بـ‘النوادر والمضاحك’.

ويبدو أن شخصية جحا أصبحت نموذجًا لتراث الأدب الشعبي الفكِه الذي كانت تطاله يد الزيادة عبر العصور، حتى خصَّص له العلامة جلال الدين السيوطي (ت 911هـ/1505م) كتابًا أسماه ‘إرشاد من نحا إلى نوادر جُحا’؛ وكتاب السيوطي لا يزال مخطوطًا للآن

وفي شأن جحا؛ يحسن هنا التنبيه على أمرين: أولهما أن الذهبي ميزه -في ‘السِّيَر’- عن أبي الغصن ثابت بن قيس الغفاري (ت 168هـ/784م)، وقال: "أخطأ مَن زعم أنه جحا صاحب تيك النوادر"! وثانيهما أن المؤرخ الزِّرِكْلي (ت 1396هـ/1976م) نبه -في كتابه ‘الأعلام’- إلى أن جحا هذا غير "جحا التركي": خوجه نصر الدين (ت 683هـ/1284م) الذي طُبع له كتاب بنفس العنوان: ‘نوادر جحا’.

وبالعودة إلى تراث الفكاهة العربي؛ يبدو أن جدلاً دار حول المزاح والضحك في فترة متأخرة نسبيًا، مما اضطرّ الفقيه والمحدث بدر الدين الغزّي الشافعي (ت 984هـ/1576م) لأن يُفرد لهذه المسألة كتابه "المراح في المزاح"، وقال في مقدمته: "أجبتُ بأنه (= المزاح) مندوب إليه بين الإخوان والأصدقاء والخلان؛ لما فيه من ترويح القلوب، والاستئناس المطلوب، بشرط ألا يكون فيه قذف ولا غيبة، ولا يُحرّك الحقود الكمينة".

وعلى درب ابن الجوزي الذي تحدث عن دافعه لتأليف كتابه ‘أخبار الظراف والمتماجنين’؛ ألَّف قاضي غرناطة ووزيرها أبو بكر ابن عاصم المالكي (ت 829هـ/1426م) كتابه "حدائق الأزاهر في مُستحسن الأجوبة والمضحكات والحكم والأمثال والحكايات والنوادر"، وحرص فيه على جمع أخبار الضحك والفكاهة لتكون "فيه تسلية للنفوس، وترويح للأرواح، واستجلاب للمسرات والأفراح، وراحة الخاطر، وأُنس المجالس والمسامر".

وفي مقابل هذا الفريق؛ نجد اتجاها آخر يعارض هذه الظاهرة، وكان على رأسه جموع من علماء الزهد والأخلاق والتصوف؛ ممن حضّوا على "قلة الضحك" و"ترك المزاح"، كالذي صنعه الإمام الزاهد وكيع بن الجرّاح (ت 197هـ/813م) في كتابه ‘الزهد’.

بل إن بعضهم كان سببا في "اعتزال" بعض المُضحكين لمهنة الإضحاك؛ فقد روى ابن عساكر -في ‘تاريخ دمشق’- أنه "قَدِمَ سفيان الثوري (ت 161هـ/778م) المدينة فمرّ بالغاضري وهو يتكلم ويُضحك الناس، فقال له سفيان: أما علمت أن لله عز وجل يوما يخسر فيه المبطلون؟ قال: فما زالت تُرى في الشيخ (= الغاضري) حتى فارق الدنيا"!

تلك جولة في التراث العربي المتعلق بثقافة الفكاهة والضحك؛ وهي لمحة لم نستطع أن نجاري كل أخبارها ومصنفاتها؛ وقد رأينا تأصّل هذه الظاهرة في الناس بمختلف طبقاتهم الاجتماعية عبر القرون منذ أقدم العصور؛ لندرك معه أن المرح والضحك مكون أصيل من مكونات الشخصية العربية وغير العربية؛ وهو تاريخ -بالنظر إلى تراثنا المدهش- لم يُكتب بعدُ حق كتابته!!